بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

١

عند ما يتعرض قوم لتسجيل مرحلة من مراحل الفكر الإنسانى . لا يجدون مندوحة عن الاهتمام بفئة حملت المشعل وظفرت بسلطان الزعامة . وقد يسرف هؤلاء القوم فيضعون بعض هذه الفئة فى قمة ما وصل إليه التطور البشرى ، وإذ ذاك تبدو القيم المجتمعية — كلها أو بعضها — كما لو كانت من نتاج نفسه ، أو من عمل طاقاته المبدعة ، وقدراته الخالقة .

وسواء أكان حقًّا ذلك أم غير ذلك ، فإن التفوق الشخصى لا بد ينتهى إلى أنه محصلة من المحصلات التى ترتبط بالنظم الاجتماعية القائمة . ولقد أصبح من المؤكد أن قادة أى جيل لا يمكن أن يكونوا غرباء عن هذا الجيل ، فهم منه وهم له ، وهم فى انبثاقهم عنه إنما يعملون من أجله . ومعنى ذلك أن نشاط القوة الخلاقة أو خمودها عندهم ، إنما يتوقف على نوع العلاقة التى تنشأ بينهم وبين الذين يتفاعلون بهم . ولا دخل هنا لتعميق جدوى هذه العلاقة أو لا دخل لما قد ينجم عنها من خير وشر . فالأمر فى ذلك موكول إلى معايير أخرى هى أكبر من أن يشار إليها هنا لمحًا .

نقول ذلك وأمامنا تراث ضخم وضعه قادة ضخام . . نقرؤه وبين أعيننا وفى قلوبنا آثار فكرية ووجدانية لطائفة من البصريين شهد المتعرضون لهم بالإجادة والتفوق ! ونحن إذ نحتفى بهم من أجل هذه الآثار ، فإنما لنسجل أن تفرد بلدهم بهم لا يعنى إلا تفردها هى بميزات لم تتح لغيرها ، بل لا يعنى إلا أنها

كانت بقادة فكرها تصدر عن قيم وأوضاع لها من الغناء ما لم يكن لغيرها منه إلا القليل .

فى البصرة عاش واحد كابن المقفع وعاش آخر كالخليل بن أحمد . وبين الرجلين من وجوه الخلاف — دماً وهوى واتجاهاً — ما يجعلهما على طرفى نقيض ، إلا أن كلا منهما كان كبيراً فى بلده ، واستطاع أن يعطى هذا البلد بقدر ما أخذ منه ، وكان ابن سمائه وأرضه وأفكاره . وتلك خطوط كبيرة فى بيئة حرمت معالمها مدينة أخرى كالكوفة أو دمشق !

وفى البصرة عاش الفرزدق وعاش بشار وبين الشاعرين كثيرٌ جداً مما يفرق بينهما ، غير أنهما مع ذلك يجتمعان على صعيدها ويصدران عن قيم كونتها فيها أقرب بيئة انفعلا بها ولها ، وأخذا منها الكثير ، وقدما الكثير ؛ فكانا ثمرة أوضاع وقيم لا تكاد تعرفها — على النحو نفسه — مدينة أخرى كالفسطاط أو مكة !

وهكذا . . .

دَل واحد من هؤلاء ، ودَل واحد من الذين رعتهم البصرة غير هؤلاء كأبى نواس ورؤبة والخليع والحسن البصرى والجاحظ . . لا يمكن أن نسلخه عن بلده ، ولا يمكن أن ننكر فضل بلده عليه ، ولا يمكن أيضًا إلا أن نقول إنه بصرى ، لأن البصرة بشخصيتها وطاقاتها خلقته وشكلته .

وقد يكون الواحد من هؤلاء لا نظير له . . قد لا يكون إلا مثلا لنفسه ، ولكننا برغم ذلك لا نرى فيه إلا معالم بلده ... بكل ما فيه من متناقضات ؛ وبكل ما تسفر عنه اشتباكات حوادثه من أسباب !

وبهذه الشخصية . . شخصية البصرة القادرة على التشكيل والتوجيه ، اندفع قادتها يتولون زمام الثقافة العربية ، بَلْهَ الإنسانية ! اندفع شعراؤها يغنون على أوتار بدا عزفُها مألوفًا أول الأمر ، ثم ما لبث أن تبين فيه السامعون شيئًا لافتًا . واندفع علماؤها يخضعون منطق أرسطو لمنهجهم ، ويطورون بحوثهم فى الفلسفة والكون والحياة بحيث تتسع لأفكار الإنسان فى كل مكان ؛ فكانوا من هنا

أكبر من أن تضمهم البصرة !

وضعوا أسس الكلام وطوروه ، وابتكروا العروض وهو الفن الذى لم يزل قائماً بصورته الأولى حتى الآن ، وعمقوا مباحث المنطق ، وقدموا النحو فى الصورة التى نعرفه بها اليوم ، وجعلوا القصيدة العربية صوراً تعبر عن لحظات مُعاشَة .

وكان ذلك فى زمن وجيز إذا قيس بالزمن الذى يحدد أعمار الشعوب ، فلقد مرت البصرةُ بطور شبابها عَجِلة لا تلوى على شىء ، وكانت أسرع من الحياة فسبقت الحياة ! وإذا هى فى آخر الأمر — أو على مطالع القرن الهجرى الثالث — لا تكاد تنتبه إلا لتودع ابنًا لها من القادة ، يموت فتشيعه إلى القبر ، أو يرحل إلى بغداد فترجو له السداد .

٢

وإذا كان هذا الكتاب يريد أن يعرض للحياة الأدبية فى البصرة محدّداً أعلام هذه الحياة ومظاهرها الاجتماعية ، فإنه لا يمكن أن يهمل ما سِوى ذلك . بمعنى أن الحياة الأدبية يجب أن ترتبط بالحيوات الأخرى ، بل لعل دراسة هذه الحيوات أحق بأن تكون مقدمة ضرورية لفهم حياة الأدب الخاصة .

ومن هنا كان لا بد أن أناقش كل ما ييسر فهم أية ظاهرة « فنية » على أساس أن الأدب أحد ضروب الفن وأحد أشكاله .

وقد هدى البحث على ضوء ذلك إلى بعض الفصول يراها بعضٌ نافلةً ، فإذا استكنه أحدهم مضمونها رآها تعرد بالخير على الدارس الواعى . ولهؤلاء لا أكتب فإنما أريد من يؤمن بنبل الرسالة ، ومن يستطيع أن يقدر تبعاتها ، وقد عُلِّمتُ من قديم أنه لا خيرَ فيمن يأخذ الأمرَ أقربَ مأخذ ، وأينا يفعل ؟

ولست أريد أن أزعم أن هذا الطراز من البحث — وهو فى جوهره وكثير من تفريعاته يعنى بالتراث — جديد على الدراسات الأدبية ، ولكنى أزعم أنه

عاصر الرغبة التى تحولت بها الاتجاهات عن دراسة البيئات العامة إلى أخصَّ بيئة يضطرب فيها فنان ، وأزعم أنه عاصر الرغبة فى وضع المفاهيم الحية ـ التى ينبغى أن يقدَّرَ بها أدبنا التقدير الذى يتناسب مع عظمته ، بل أزعم أنه حقق رجاء الذين رأوا أن نبدأ بتفهم الأصول الأولى قبل أن نحاول التجديد .

غير أنه اتضح لى أن أدب البصرة كموضوع يناقش ليس شيئًا جديداً ، ومن ثَمَّ حاولت أن أضعه فى زاوية تكشف عن سبل لم تطرق وتؤدى مع ذلك إلى فهمه وتذوقه . وفى هذه الزاوية ظهر أن نتائج المحاولة أخلق بأن تدعمها دراسة لشخصيات بصرية أنتجت وكان لإنتاجها الأثر البعيد ، كما ظهر أنه لا بد من مراجعة كل ما كتب عن البصرة مؤخراً — بالذات — على أساس أنه محاولات لبعث القديم ، أو على الأقل محاولات لتقويم هذا القديم .

وأشهد لقد وجدت خيراً وجهداً طيبًا ، ومن حسن طالع أمتنا أن يقوم فيها الجادون من أبنائها بتنقية كل ما علق بموروثاتها من شوائب . ولكنى وجدت أيضًا من الأجانب من أسهم فى هذه العملية على قدرِ فَهْمِه للغتنا وذوقنا الأدبى ! .

ولن أذكر هنا سوى شارل بلاّ Charles Pellat ذلك الدارس المعاصر الذى جعل الجاحظ وسيلة بحث لتخطيط حياة البصرة تخطيطاً لا غبار عليه ، وجعل اسم ذلك البحث « أثر الوسط البصرى فى تكوين الجاحظ » Le Milieu Basrien et la Formation de Jahiz وهو يعتبر من أحسن البحوث الجامعية التى تربط الشخصية الأدبية بأضيق بيئة لها ، وتجعل الجاحظ — وهو الشخصية الأدبية التى يدرسها — قيمة عالية فى تجدُّدِ أفكاره التى استمدها من علوم البصرة وتقاليدها .

هو لم يحاول أن يقرن الجاحظ بغيره ، حتى بأبى الحسن المدائنى معاصره الأديب الكبير ، بل لم يقرنه بابن المقفع سلفه العظيم ، وكأنما كان هناك ألف شىء يجعل الجاحظ منقطع النظير على مدى العصور ، إلا أنه قبل ذلك كله بصرى خالص ، ولا سيما فى مرحلة تحصيله التى استمرت نصف قرن !

والتخطيط الكبير لبحث بلاّ تميزه ملامح استمدت عناصرها إلى حد كبير من تقسيمات دارسينا العرب . حقًّا قد يمكن ألا ننظر إلى هؤلاء الدارسين نظرتنا إلى هذا الدارس الأجنبي ، غير أنه كان من الذكاء بحيث جمع بين دقة المنهجية وتفهم مادته ، ومن ثم تحدث عن بلد الجاحظ فى القرنين الأول والثانى للهجرة حديثًا، أكاد ألتقى معه فيه على صعيد مشترك ، كما تحدث باقتضاب عن سكانها وحصر قبائلها العربية فى قوائم جاعلا من قام على خدمتهم — من زط وسيابجة وهنود — عناصر دخيلة .

على أن هذا لا يقاس بالمجهود الذى أنفقه فى تصوير العقلية البصرية ، وذلك بعد أن تعقَّب الجاحظ منذ ولادته حتى اتصاله بالأوساط الفكرية المختلفة ، فعرض للسنية بمناقشاتهم فى التفسير والحديث والزّهادة والقصة الوعظية ، وعرض للمتأدبين شعراء كانوا أو غير شعراء فى مختلف اتجاهاتهم ونزعاتهم ، كما وقف عند الفرَق من عثمانية وخوارج وشيعة وشعوبية . وانتهى بدراسة اجتماعية ربطها بالحياة الاقتصادية على أساس طبقى ، مصرّحًا بأن الجاحظ لم يكن ليقف عند طبقة معينة ، بل كان ينتقل من الطبقة الشعبية إلى البرجوازية ، ثم يتحول إلى الأرستقراطية ، دون أن يكون فى وثباته هذه شىء من المبالغة أو التجنى ، لأن الجاحظ الذى تحرَّر — كما تحررت البصرة — من تقديس أقوال القدماء المتحمسين ، كان عميق النظرة شديد الاتكاء على نفسه ، وكانت هذه النفس متزنة عادلة !

ذلكم هو بحث بلاّ . . موضوعى ، مدعم بالوثائق ، لا تعوزه اللفتات الذكية ولا الإشارات العميقة ، وإنما يعوزه تذوُّق العربى ، وحماسته ، ورغبته الأكيدة فى الحفاظ على تراثه المجيد .

وإذا كان هذا البحثُ يظفرمنا بما ظفر ، فإن عنايتنا به لا يمكن أن تنسينا على الإطلاق دراسات الدكتور صالح أحمد العلى فى « التنظيمات الاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى » وفيها يقرر المؤلف أنها تعريب لرسالة أجازتها جامعة أوكسفورد ، ونشرها عام ١٩٥٣ ، مضيفًا إلى الأصل المعرَّب إضافات

فاتته خلال التحصيل الأول .

لقد سلَّم المؤلف بأن البصرة ، وإنْ ظلت بلد القلقلة والفورة ، استطاعت فى حالات اضطرابها أن ترسىَ دعائم حضارة مبكرة ، وبدا أنَّ من رأيه أن القرن الأول الهجرى هو الذى عمل على تحديد خطى البلد بعد ذلك حتى فى أهم مرحلة من مراحل ثورته على القديم إبَّان عصر الموالى الناهض .

كان القرن الأول — حقًّا — أخطر فترة اصطدم فيها العرب بحضارة غيرهم . اصطدموا بها اصطدامًا فكريًّا اولا قوةُ شخصيتهم التى استمدت كيانها من القرآن لأطيح بهم ، وقد تجرَّدَ المؤلف لهذه الفترة بعينها فتَعَمَّقَ أسبابها واستكنه نتائجها ، ورَصَد لحالات قوية واضحة يمكن لأى طارق لها أن يجد فيها الغَناء .

ولعل أهم ميزة لهذه الدراسة أن صاحبها لم يكن يقصد بها شخصًا معينًا كما فعل بِلاّ مثلا ، وإنما قَصَدَ بها كلّ من عاش فى البصرة كمجموعة تتحرك فى دائرة وتتصل بها فى هذه الدائرة مجموعاتٌ أخرى . فيكون ثمَّة تفاعلٌ ، ويكون ثمة آثارٌ ، ثم يكون بعد ذلك أنَّ تنظيمات البلد المالية والاقتصادية هى التى تعمل على تشكيل الأهواء والفرَق ، بل كذلك على تشكيل القادة الذين قد يتحكمون فى تسيير عجلة التاريخ !

وهناك ميزة أخرى للدراسة ، هى فى دلالتها على صلاحية ما فى كتبنا القديمة للبقاء برغم اشتباك موادّ هذه الكتب ، وتعارض أفكارها ، وبُعدها فى كثير من الأحيان عن التحقيق التاريخى . ولقد استطاع الدكتور صالح العلى فى أثناء استعراض تاريخ البصرة أن ينجح فى رسم التنظيم الاجتماعى الدقيق لسكانها ، فلما انتهى إلى الإدارة والحكم صدر بأحكام تشبه فى دقتها هذه الأحكام التى وُجِّهت إلى التنظيمات المالية للبلد ! ولقد نجد فى حديثه عن الواردات والمصروفات مثلا إحصائيات تبدو كأنها لا تفيد فيما لا نقصد إليه من بحْث أدبى ، إلا أن هذا سرعان ما يزول عندما نلتقى فى الثنايا بحوادث تكشف عن

أكثر من جانب لحياة المدينة !

وكذا نرى أن الجهود متكاتفة فى سبيل بعث تراثنا ، على أساس علمى دقيق .

يلتقى فى الميدان العربىُّ وغيرُ العربى — لأن تراث البصرة تراث الإنسانية — وكلهم مدفوع من أجل غاية معينة . أما غاية العربى فأنبل من أن تناقش شرعيتها ، فهى من أجل أمه تريد أن تعيش ما عاشت الحياة !

٣

وأما الحياة الأدبية للبصرة فأنا لا أعرف أحداً من القدماء ولا من المحدثين أخذ نفسَه بالتعرُّض لها كقطاع متميز بنْيَةً وملامحَ وحدوداً . وأنا إذ أريد أن أفعل ، يجب أن أعنى قَبْلُ بالإطار الذى عاش فيه المشتغلون بهذه الحياة . ومن أجل ذلك رأيت لزاماً علىّ أن أناقش الجوهريات متداركًا ما فات ، مستنداً إلى الصالح ، منكراً كلّ ما لا يجدى . فَجُلْت فى أقدم مجال اضطربت فيه البصرة ، وأكّدت قيام علاقاتٍ قويةٍ بين الأجيال الإسلامية التى عاشت فى المدينة وبين الذين سبقوهم على مسرحها العريض . أجل ، فقد ظهر أن البصرة المسلمة كانت هى البصرة التى وجدت منذ أقدم قديم !

هذه الحقيقة قد يكون فيها من الطرافة ما يعادل كلّ ما تبعثه من شك ، غير أنها أكّدت أن التنقيب عن الرواسب الأولى لأية موهبة ينتهى إلى ماضٍ لا يمكن أن يبدأ فى العشرة الثانية من القرن الهجرى الأول . ومن ثم كان لا بدّ أن أهتم بتاريخ العراق على مختلف عصوره قبل أن يعرف الإسلام ، وقبل أن تصطدم فيه قيمه بآثار الأولين ، وهذه لا يمكن أن تموت .

ومعنى ذلك أن أيةَ شخصيةٍ بصرية ليست فى الواقع إلا نبتةً طلعت فى تربةٍ أخصبتها أيْدٍ لم تكلّ يوماً من الأيام !

فهل كثير أن أتعرض — فى أناة — لتاريخ البصرة الاجتماعى والاقتصادى

والعقيدى ؟ هل كثير أن أعقد الفصول الطوال التى ترسم ذلك الإطار الذى عاش فيه الأدباء ؟ وهنا كان من الضرورى الرجوعُ إلى نوعيْن من الكتابات ، نوع قدَّمه باحثون من الغَرْب أمثال ماسينيون Massignon وجب Gibb ووُلى Leonard Wooley ووليامز H.S. Williams وهؤلاء كتبوا بخاصة فى تاريخ الإقليم القديم ، ونوع قدمه باحثون عَرَبٌ فى التاريخ العام أمثال ابن جرير الطبرى وابن الأثير والمسعودى ، وفى البلدان أمثال البلاذرى وياقوت وابن الفقيه ، وفى الأخبار كابن قتيبة وأبى الفرج وابن الأنبارى ، وفى اللغة كالخليل وسيبويه والسُّيوطى والزَّبيدى .

ولقد بدا واضحًا أن الفترة الزمنيةَ التى تحدَّدَ بها هذا البحث تعتبر بحقّ أهمَّ العصور فى تاريخ أمتنا . وفى الوقت الذى كان فيه قادة الثقافة يشغلون الرأى العام بآثارهم ، كان الأدباء يضعون اللبنات القوية فى صَرْح الأدب ، وأسْهَم الجميع — أدباء وعلماء — فى استقطاب ألوان النشاط الثقافى من أعمق غور وأبعد مدى !

وهنا التحم الأثر الفنى بالأثر الفكرى ، وبات من المؤكَّد أنَّ أى فصْل بينهما لا يمكن أنْ يتمّ إلا فى حدود ضيقة ، هى تلك التى تقيم المعالم لحياة فنية تصدر عن حافزٍ جمالى قد تقوِّمه الغايةُ النفعيةُ أحيانًا ، ولكنه قبلُ نشاطٌ وجدانى خاص .

فالمناظرة وهى جدل عقلى ، والخطابة وهى إقناع لسانى ، والترجمة وهى نشاط ذهنى — وفى كل هذه ظهر بصريون قادةٌ أمثال النظّام والأحنف بن قيس وابن المقفع — إلى جانب حركات تدوين اللغة والتاريخ والتفسير ، وقد برز فيها سيبويه وأبو عُبَيْدة وشُعبة بنُ الحجاج . . أقول إن ذلك كله لا يمكن فصله عن الأدب ، على الأقل من وُجهة النظر الكلاسيكية التى كانت تجعل كل هذه الأشياء وحدةً لا تتجزأ . ولكننا بشىء من النظر الواعى نستطيع أن نلمح شيئًا يمكن فصله عن هذه جميعًا ليكون وحدة قوامها الفنُّ أولا ، وهدفها إثارةُ الإعجاب اقتنع الناسُ بها أم لم يقتنعوا .

وهذا يفسرُ لماذا قَصَرْتُ الشعر وبعض جوانب من النثر — سَمَّه منذ الآن النثر الفنى — على باب اعتُبر كلُّ ما قدمته وعاءً ينبغى أن يوضع فيه ، وتُثار هنا مشكلةٌ أصلها الجذرى نوعيةُ فَنَّى الشعر والنثر ، وتقدُّمُ أحدهما على الآخر . وظهر جليا أن الشعر البصرى كان أسبق وجوداً وأصلب عوداً ، فى حين تأخر الزمن ليقف على الأرض ابنُ المقفع ، ومثل ابن المقفع قليل .

ألا يوضح ذلك لماذا سادت البحثَ عنايةٌ ظاهرةٌ بالقصيد وبأصحاب القصيد ، ولماذا غلب على البحث الاستشهادُ بالشعر حتى رأينا فى هذا صورةً كاملةً للبصرة ربما لا تقل جدوى عن صورتها التى تُلتَمَس من شتى كتب الجغرافيا والتاريخ !

ولقد كان حَتْمًا بعد ذلك أن يرى الدارس أنَّ الشعر فى الوقت الذى كان فيه يؤدّى دورَه فى عملية البناء ، كان النثر لا يكاد يكشف عن اتجاه فنى معين ، ولم تكن له الشخصيةُ المتميزة ، وجاء أعلامه حالات فردية . وقد نستطيع أن نجعل عبد الحميد الكاتب معلماً لابن المقفع وغيره فتكونَ ثمةَ مدرسةٌ نثريةٌ أو نحو ذلك ، إلا أن تَفَرُّدَ الأول بوضع قواعد الرسائل فى حين عمل الثانى على إقامة دعائم الأدب يفرّق بينهما كأبعد ما تكون الفُرْقة . والاثنان بعد ذلك أو قبل ذلك لا يشبهان الجاحظ فى شىء ، على الأقل فى اعتمادهما على عناصر أجنبية لأنهما كانا من أصل غير عربى ، فى الوقت الذى اعتمد فيه الجاحظ أكثر ما اعتمد على موروث أمته العربية .

وبهذه الفكرية صدرت ، واستطعت أن أتلمس عواملَ الإبداع عند كلِّ مُبْدِع وحددت ملامح البديع ، متجاوزاً عن المسائل الجزئية إلى فكرة الأدب ذاتها ، وإلى فكرة الشعر بصفة خاصّة . وفى هذا المجال بدت انحرافات تلك الفترة ، كما بدت تلوناتها ؛ فكان من السهل أن يلمس كلُّ دارسٍ قيمة ذلك جميعَهُ فى تاريخ أدبنا العام .

وأما الشخصيات الأدبية ، فقد كانت من الكثرة بحيث أصبح من المتعذر

حصرها . لا سيما بعد أن رأينا أن البصرة في حياتها الأدبية كانت تفتح ذراعيها دائماً للوافدين عليها من شعراء الكوفة والرقة وبغداد ودمشق ، فماذا لو أضفنا إلى هؤلاء أدباء البصرة أنفسهم . من أجل ذلك لم أهتم بالشخصيات إلا بالقدر الذى تستحقه ، وإن كنت خصصتُ بعضها بفصول يحتاج إليها البحث ، ويريدها المنهج ، ويطمح إليها التطبيق .

* * *